قراءة في مخطوط « كشف الغمة ببيان أنّ حرب النّظام حقّ على هذه الأمّة» للعلاّمة محمد بن عبد القادر الكردودي

د/ عبد الرحيم وزين
جامعة محمد الخامس - الرباط
المملكة المغربية

Abstract

"Kachf Al Ghomma b bayan Anna HarbAnnidamHaqqAlahadihi Al Omma" (détection du chagrin en expliquant que la guerre d'ordre est obligatoire pour cette nation), est une manuscrite écrite par Mohammed ben Abd el Kader Al kardoudi (décédé en 1851),après la défaite militaire de l'armée marocaine traditionnelle à la Bataille d'Isly en 1844 devant la France.

L'auteur a essayé de trouver une solution à la crise de l'armée marocaine, en critiquant le style de combat de cette dernière qui est, selon lui, la cause de la défaite de cette armée et de la faiblesse de l'Etat marocain. C'est pourquoi Al kardoudi a insisté sur l'obligation de réformer cette armée etde changer son style de combat, en créant une armée d'ordre marocaine comme celle des européennes, ce qui ne s'oppose pas avec les ordres du Saint Coran et de la Sunna du Prophète.

Cette contribution est un essai de découvrir et d'analyser les idées de ce document historique précieux.

مقدّمة:

شكلت هزيمة إيسلي سنة 1844، بداية تحول أساسي في تاريخ المغرب، ذلك أنها مهدت الطريق لنكسات اخرى زعزعت المعطيات السياسية والاقتصادية والعسكرية للبلاد، وفتحت الباب أمام بداية التوغل الأجنبي. وإذا كان ذلك يعد نتيجة موضوعية لتداخل أوضاع داخلية بأخرى خارجية، فإن الواقع لا يحيد على ما لعبه ضعف الجيش المغربي خلال القرن التاسع عشر من تسهيل لمهمة العدو الأجنبي، بعد رفع حجاب الهيبة عن المغرب وتطاول أياديه إلى أقطارها.

لقد شكل الحدث فرصة أمام جميع الأوربيين للتصفيق لانتصار الحضارة والتقدم على العالم الإسلامي المتأخر، وتأكد هذا الالتحام الحضاري مرة أخرى خلال حرب تطوان سنة 1860، حيث أبرز قنصل السويد إحساس الأوربيين الجماعي بقوله : « إن كل إنسان محايد سيصحب بدعواته الجيش الاسباني متمنيا له النصر تلو النصر »[1]، وقد عبروا جميعا عن مدى فرحتهم وهم يلمسون انهيار امبراطورية طالما هددت سفنهم التجارية وألزمتهم بدفع الضرائب، ومرة صدت في وجوههم الموانئ وطالبتهم بالابتعاد.

وكان من الطبيعي أن يصدر بالمناسبة عدد من الكتابات والأبحاث، إما تمهيدا للحملات العسكرية، وإما استخلاصا لنتائجها، يتطلعون من خلالها، مباشرة إلى تمزيق التراب المغربي من جهة ثخومه الصحراوية الشرقيةوالجنوبية[2].

لقد روعت حرب إيسلي الضمائر وزعزعت المؤسسات، وخلقت اختلالا في البنى وتفكيرا في مراجعة الأحوال أو الإصلاح، وتمثل ذلك في وجود يقظة شعبية آنئذ، أخذت تبدو في غير ما مناسبة، وتفتقت على مستويات عدة، تجلت في انبعاث حركة تجديدية بالرغم من كونها محدودة، وساهم فيها إلى جانب أولياء الأمور، طبقات شعبية متنوعة [3]، تكفل بها مجموعة من العلماء ورجال الدين وقادة الفكر، ممن كانوا ينادون « بإصلاح » الوضع الداخلي بعد الخلل الذاتي الذي أصبح يقوم عليه مجتمع المسلمين [4]. ولم تتخذ هذه اليقظة شكل حزب وطني، وإنما كان هناك بعض المؤلفين وكذلك شعراء وخطباء يذيعون تلك الأفكار التي كانت تهدف إلى المطالبة بتجديد الجيش المغربي، وتنادي بالجهاد لتحرير الجزائر [5]. فتحركت الأقلام وبثت الدعوات، وتقاطرت على البلاط المغربي مجموعة كتابات ورسائل تحث السلطان على أخذ المبادرة ومعالجة الوضع المغربي للخروج به من أوضاع الهزيمة، وفك لحومه من أنياب المعمر الطامع. وقد اهتمت هذه الدعوات بإعادة تنظيم الجيش، وترتيب صفوفه، وإتمام عدته، على أساس أنه عنصر القوة والصيانة للبلد. فاتخذت كتاباتها منابرا لتجييش المشاعر واستنهاض الهمم، وبعث الشعور القوي على مواجهة العدو لفك شوكته، واستئصال شأفته.

ويشكل مخطوط «كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة» لصاحبه العلامة محمد بن عبد القادر الكردودي، أحد الكتابات التي أرخت لهذه الفترة الحرجة من تاريخ المغرب المعاصر، والتي سعت إلى طرح الحلول لتجاوز الأزمة، بعد محاولة الوقوف على مظاهرها، وما حفرته من جرح فضيع في نفوس العديد من شرائح المجتمع المغربي. وسنحاول في هذا المقال التطرق لدراسة هذا المخطوط من خلال التعريف به، والوقوف على مجمل مضامينه،

وبصفة خاصة ما تضمنه من مواقف واقتراحات لمعالجة مسألة تجديد وإصلاح الجيش المغربي. وقبل ذلك يجدر بنا محاولة إضاءة بعض الجوانب من حياة الكردودي، كمؤلف عايش الأزمة وعبر عن موقفه منها، من خلال نسج خيوط مؤلفه: « كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة». فمن هو محمد بن عبد القادر الكردودي؟

أولا . محمد بن عبد القادر الكردودي: بطاقة تعريف.

تكاد المعلومات المتوفرة تحت أيدينا بصدد الكردودي، تنحصر في ما ذكره صاحب «سلوة الأنفاس»، أو ما يمكن استنباطه من إشارات بعض المراجع. وعليه، فالاسم الكامل للمؤلف كما يقول صاحب السلوة هو: « الفقيه الأجل، العلامة الأفضل، المشارك الأحفل، البركة الأمثل، المدرس الأبهر، الهمام الأشهر، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر بن أحمد الكلالي الحسني الشهير بالكردودي ... » [6]. وإذا كان أغلب من ذكروه أشاروا إلى شهرته بالكردودي، فليس هناك ما يثبت سبب هذه الشهرة. وقد تلقى تعليمه بجامعة القرويين على يد عظماء المدرسين في ذلك العهد، كأبي الفتح بن المرابط السيد حمادي بن عبد الواحد الحمادي المكناسي، فتمكن من الحصول على الإجازة على يديه [7].

واعتنى المؤلف بالعديد من الحقول المعرفية منها الآداب، والفقه، والتاريخ، واللسانيات، لذلك كانت ثقافته ثقافة متنوعة؛ فقد كان حسب صاحب السلوة: «فقيها نحويا، وأديبا لغويا، وبيانيا محققا، ومشاركا مدققا » [8]. ومن مظاهر اعتنائه بميدان الأدب، القصيدة التي أوردها محمد المنوني يستنكر فيها تصرفات المحميين الأجانب [9].أما اعتناؤه بالحقل التاريخي، فيتضح من خلال مقدمة مؤلفه: «كشف الغمة»، والتي جاء فيها: « وقد اقتبست أنواره من عدة تآليف واقتطفت أزهاره من غير ما تصنيف »، مثل: «مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق» لابن النحاس، و»المقدمة» لابن خلدون، و»تحفة الأنفس» لابن هذيل، و»فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة» للشريف العلوي، و»بدائع السلك في طبائع الملك» لابن الأزرق وغيرهم.. [10].

تقلد الكردودي عدة مناصب، فقد كان أشهر قضاة المولى عبد الرحمان بن هشام بطنجة [11]، كما اشتغل بمهنة التدريس، وقد كانت تربطه علاقات صداقة وأدب برجالات المخزن ووزراء السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام1822.1859، الذين عايشوا فترة المؤلف، منهم « الوزير المستغني عن التنوير بعلو قدره، والمكتفي عن التعريف بسمو فخره، ملاذ كل رئيس أبي عبد الله سيدي محمد بن ادريس » [12]. وكذلك الوزير محمد غريط الذي ذكر المؤلف في حقه أنه « الفقيه الذي يناظر فيأتي بكل عجيبة، ويستنتج البدائع بين طبع محل وفكرة نجيبة، الكاتب الذي راض صعاب المعاني وساسها، وميز أنواعها وأجناسها، السيد الذي يؤتمن على أسرار الملك فلا تكون عنده خيانة ولا تفريط، سيدي محمد غريط » [13].

وإذا كنا لا نعرف للكردودي تاريخ ولا مكان ولادته، فقد كانت وفاته عام 1268هـ الموافق لـ 1851 للميلاد، يقول الكتاني: « توفي شيخنا علامة الزمان، وفريد العصر والأوان، المحقق المدقق، اللغوي الأديب المفلق، أبو عبد الله سيدي محمد الكردودي، عند العصر من يوم الثلاثاء حادي عشر رمضان المعظم عام ثمانية وستين ومائتين وألف، ودفن قرب الولي سيدي بن يوسف الفاسي تحت الكرمة التي فوقه، وكان

مرضه بالمرض المسمى بالشهدة أعاذنا الله منه بمحض فضله » [14]. وقد جاء في نعيه قصيدة لعبد الواحد السليماني ذيلت بها خاتمة المخطوط، نذكر منها الأبيات التالية:

من رام أن يروى بعذب ورود

ويمتع المرءى بحسن شهود

ويجول في سرح السياسة ظافرا

من علمها بخلاصة المقصود

فليقتصر فيها على تآليف من

وفت علومه للورى بوعود

ذاك المجيد النحرير من

رقيت مآثره بأوج صعود

علامة الدهر المحقق لم تزل

آياته تتلى بغير جحود

شيخ المعارف ذو الفخار محمد

ذاك ابن عبد القادر الكردودي[15]

ثانيا . التعريف بمخطوط كشف الغمة

1 . المخطوط المعتمد

هو نسخة من المخطوط الأصل المتواجد بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم: 1281د، وقد وضع المؤلف افتتاحيته باسم السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، يقول الكردودي: « فجاء بحمد الله كتابا جامعا، ورضا يانعا، وسيفا لأهل البغي قاطعا، وقذى في عين الكاشح قامعا، اتحفت بساط مولانا الإمام رافع راية الإسلام، حامي حمى الشريعة، وماحي بعدله ظلمة الجور الشنيعة... السلطان الهمام أمير المؤمنين أبي المفاخر مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام » [16].

2 . تاريخ التأليف

ليس لدينا تاريخ دقيق عن سنة تأليف مخطوط «كشف الغمة»، وكل ما نعلم أن الكردودي توقف عند حدث الاستعمار الفرنسي للجزائر، يقول في مقدمة مؤلفه: «..ورأيت العدو الكافر دمره الله وأهلكه، وظفر أيدي الملمين بجميع ما ملكه، قد استولى على مملكة الجزائر، وقهر كل ذي سطوة فيها من ملك أو ثائر » [17]. ونفهم من الكتاب أنه جاء كدعوة للجهاد وتنظيم صفوف الجيش بعد الهزيمة التي مني بها الجيش المغربي بإيسلي، وإعلان المستعمر النية« لقتال أهل المغرب الأقصى، وأخذ ثغوره التي لا يعد فضلها ولا يحصى » [18]. كما أورد الكردودي في الباب الثاني من المخطوط شهادة لأحد الجنود المغاربة وقد « حضر قتال الروم بناحية وجدة » [19].

وعليه يكون الكردودي قد شرع في تدوين مؤلفه «كشف الغمة» مباشرة بعد هزيمة إيسلي سنة 1844، نظرا لحساسية الموضوع الذي لا يحتمل التأجيل. أما تاريخ النسخ والطباعة، فقد طبع المخطوط بالمطبعة الحجرية بفاس أيام عهد السلطان المولى الحسن 1873 . 1894 سنة 1303 هـ الموافق لـ 1885 م .

3 . المخطوط من حيث الشكل

. مخطوط صغير الحجم، مطبوع على الحجر بفاس في 111 صفحة.

. مسطرته: 25 سطرا.

. متوسط عدد الكلمات في السطر: 13 كلمة.

. مكتوب بخط مغربي مقروء.

. مبوب في 10 أبوب وخاتمة، يقول الكردودي: « ونبهت إلى أن أبوابه العظيمة المنة

على عدد الصحابة المبشرين بالجنة » [20].

5 . من حيث المضمون/ السياق التاريخي لكتابة مخطوط «كشف الغمة»

جاءت كتابة المخطوط كما تدل على ذلك عبارة «كشف الغمة»، في ظل الظروف الرهيبة التي عاشها المغرب عشية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وما تفتق عن ذلك من غيرة وحماسة وشعور وطني حاد لدى المغاربة شعبا وسلطانا، كان من نتائجه اصطدامات مع الجيوش الأوربية كواقعتي إيسلي وتطوان وما تلاهما من أحداث مفجعة، بعدما أصبح منطق القوة مفروضا أكثر من أي وقت مضى، وصار الجيش القناة الوحيدة والأداة الفاعلة في تحقيق السيادة داخليا وخارجيا للدولة. وأمام ما أصبح عليه الجيش المغربي من مهانة واستكانة بما عبر عليه من ضعف وتخلف في الوسائل والتنظيمات، كانت الضرورة تقتضي تعديل أسلوب حرب المغاربة وإعادة هيكلة الجيش المغربي، وهو ما بثته دعوة العلماء ورجال السياسة الذين اتخذوا من رسائلهم وكتبهم منابر لبث دعواتهم ومن ذلك دعوة الكردودي، بعدما تبين له أن الجيش المغربي هو « جيش لا معرفة له بحقائق الحروب وأوصافها، ولا علم عنده بتفاصيل أنواعها وأصنافها، ومن كان منهم ببعض

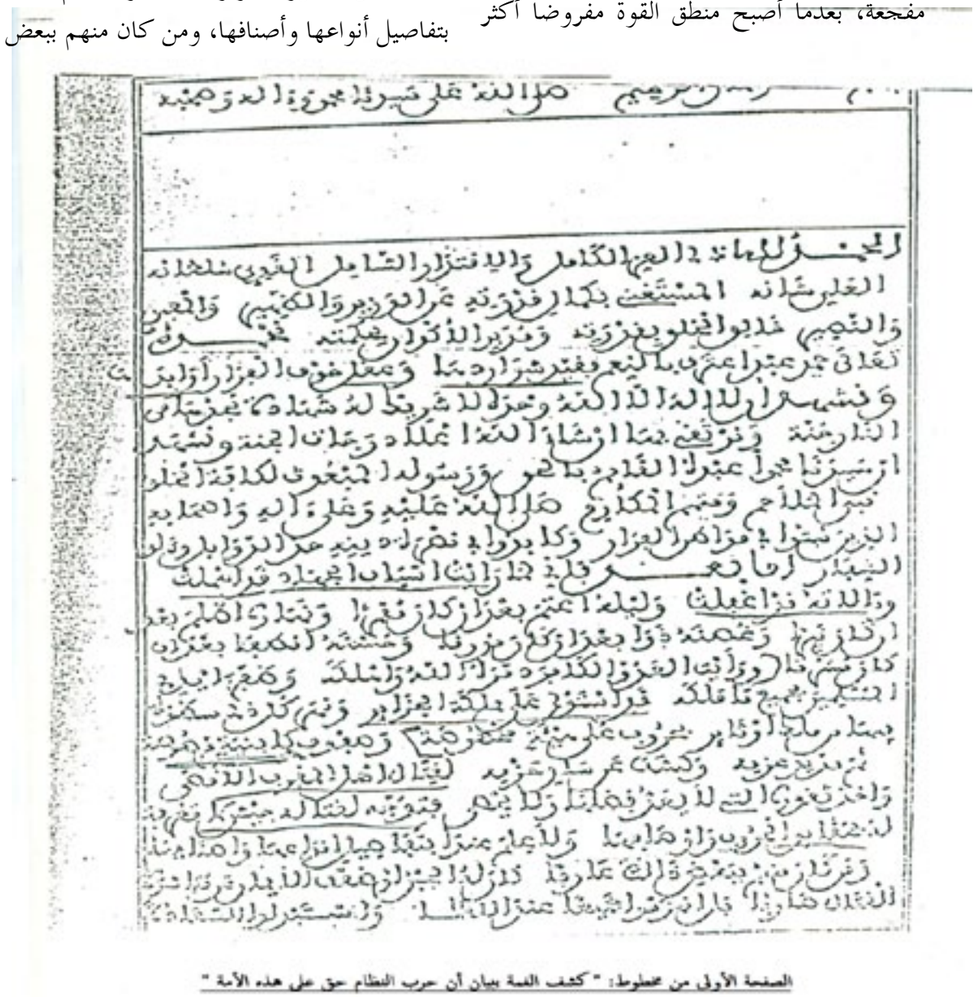

الصفحة الأولى من مخطوط: " كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة "

ذلك عارفا كان له الجبن أو ضعف الإيمان عن مباشرة القتال » [21]. إنه شعور الغيرة والإحساس بالمسؤولية للكردودي كمؤرخ ومفكر يحمل همه التاريخي، وكفقيه وعالم يشعر بمسؤوليته الدينية. وهذا ما جاء على حد لسانه: «حملتني الحمية الدينية والغيرة الإسلامية، على أن وضعت هذا الكتاب الجامع لمحاسن اللباب.. » [22].

وقد جاء المخطوط مبوبا في عشرة أبواب، اتخذ المؤلف لكل باب منها عنوانا خاصا، وهي على التوالي:

. في كيفية الحروب وبيان مذاهب الأمم في ترتيبها.

. في أسباب الظفر والهزيمة.

. في وصايا أمراء الجيش.

. في آداب الحرب.

. فيما يستعان به على تدبير الحروب وغيرها وهو مشورة ذوي الرأي والتجربة.

. في العدة.

. في الجند وما يتعلق به.

. في الشجاعة والجبن وما قيل فيهما.

. في ذكر أفراد من الشجعان والتشبه بأحوالهم.

. في حكم جامعة وأمثال نافعة.

وقد ذيل المؤلف أبواب كتابه « بخاتمة في التحريض على الجهاد ببيان فضله وعلو درجة أهله » [23].

ثالثا.كشف الغمة: محاولة لحل معضلة الجيش المغربي في القرن التاسع عشر

مباشرة بعد هزيمة إيسلي وما تلاها من معاهدات مشينة، تأكد للعيان مدى الضعف والتخلف اللذين كانا عليهما الجيش المغربي، وقد شكل هذا الحدث ضربة قوية للمخيلة المغربية خاصة لدى المثقفين وحملة الأقلام المغاربة، فساروا يفكرون في وسائل الإصلاح والبحث عن حل موضوعي وجاد للخروج من الوضعية المتأزمة التي باتت عليها بلاد المغرب خاصة ودار الإسلام عموما 24. وعلى غرار سابقيهم، لم يكن للكتابات المعنية أن ترسم بديلا أنقى وأرقى من البديل الإسلامي. فالإسلام بالنسبة لها، نظرا لما له من خصائص ومميزات له وحده الصلاحية والمشروعية لإنقاذ الوضع والخروج بالمسلمين ومن ورطتهم، أي الدعوة إلى وضع الإسلام الاجتماعي مطابقا للإسلام المعياري. فالإصلاح بهذا المعنى ينطلق أساسا من وعي بخلل ذاتي حل بمجتمع إسلامي فأوجب التصحيح بمنطق إسلامي صرف. غير أن هذا التصور للإصلاح لن يعود ممكنا مع وقوع البلاد الإسلامية تحت ضغط وتدخل أوربا الحديثة. وهكذا يتميز الإصلاح الحديث عن القديم بكونه يقدم على مقارنة تؤدي إلى وعي بالتأخر، والإحالة إلى الآخر في التفكير في الإصلاح [25]. وهو ما نجده في المشروع الإصلاحي عند الكردودي الذي ما فتئ يحيل إلى أسلوب القتال عند الأوربيين، والذي لا يتناقض مع ما ينص عليه الشرع الإسلامي.

فقد اعتبر الكردودي أن ضعف الجيش المغربي هو السبب الرئيسي وراء ما أصبح عليه المغاربة من مهانة واستصغار أمام صفوف العدو المتراصة، فأصبحت الضرورة تقتضي «إصلاح» هذا الجيش، وإعادة هيكلته وتنظيمه على النمط الذي يدعو إليه الإسلام، حتى يكون جيشا قويا يستطيع دفع العدو ورد ثغوره المسلوبة. إلا أنه لم تفته الإشارة كذلك إلى وجوب الاقتداء بالنمط

الاوربي في القتال.

وبمجرد إلقاء نظرة على أبواب المخطوط السابق ذكرها، نستطيع أن نميز في أفكار المؤلف بين شقين: ما يتعلق بالجانب المادي، وما له علاقة بالجانب المعنوي، وإن كان هو الجانب الغالب والمسيطر على أبواب المخطوط. فما هي تجليات كل من المظهرين؟ وما هي مجمل الأفكار التي رسمها الكردودي في مؤلفه كخلاص وحل لهذه الأزمة؟

1 . المظاهر المادية

وقد ارتأينا أن نبدأ بها لكونها أكثر أهمية، ويمكن تحديد أهم نقط هذا الموضوع في: تنظيم الجيش، والعدة، ومكافأة الجند.

أ . تنظيم الجيش

إنه الدعامة الأساسية التي من أجلها تمت كتابة مخطوط «كشف الغمة»، والفكرة المحورية التي ظل يدافع عنها الكردودي منذ الصفحات الأولى لمؤلفه، ولعل العنوان الذي اختاره له ليبين بوضوح وجوب هذا التنظيم. وقد انطلق المؤلف من التمييز في الحروب بين نوعين: نوع بالزحف صفا، ونوع بالكر والفر، محاولا تركيز جهوده لتوضيح مدى أهمية النوع الأول في اقتلاع النصر وسحق العدو، مع وضع اليد على سلبيات النوع الثاني من القتال، إذ ليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف [26]. وأشار إلى أن جبهة داخلية مفككة هي في انهزام داخلي قبل انهزامها العسكري الأكيد، وأمة هي بنيان مرصوص أقرب إلى النصر منها إلى الهزيمة. إنه أسلوب قتالي ضعيف، وفي ضعفه قلة حيلة الجنود المغاربة، وعدم درايتهم بأصول الحروب وفنونها.

وفي المقابل عمد الكردودي إلى توضيح فوائد وبيان استبسال أسلوب القتال بالزحف، الذي هو أسلوب حرب كل من الروم والفرس وغيرهم من العجم، لما فيه من تنظيم، إذ « ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة، ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدما» [27]. وقد أخذ الكردودي في تفسير كيفية تنظيم الأوربيين لصفوف الجيش وترتيبها، قائلا : « وللمبالغة في تسوية الصف وإقامته لا تجد واحدا منهم خارج الصف، فتختطفه خيل العدو، فإذا سقط واحد من الصف الأول مثلا، خلفه واحد من الصف الذي قبله، وهكذا إلى أن يصل ذلك إلى الأخير » [28].

إن هذا التنظيم وترتيب الجيش على هذه الصفة هو المسمى بـ «النظام»، وفي ذلك دعوة إلى اعتماد أسلوبهم الحربي، ووجوب « مقاتلتهم بمثل قتالهم » [29]، مدعما دعوته هاته بزخم من النصوص الدينية، منها قوله تعالى: ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ [30]، وكذا مجموعة من الأحاديث التي تؤكد استعمال الرسول ﷺ قتال الصف في غزواته إلى جانب قتال الكر والفر، إذ كان الصحابة مع النبي عليه السلام كالبنيان المرصوص « **إذا نزلوا منزلا انضم بعضهم إلى بعض حتى لو بسط عليهم ثوب لأعمهم** » [31].

ويلحق بتنظيم الجيش من وجهة نظر الكردودي ، «اصطناع الشجعان واختيار الأبطال من ذوي البسالة والإقدام والجرأة » [32]، وكذا حفر الخنادق وتقديم الطلائع ليستعلموا أخبار العدو ومخادعته، إذ أن إنفاق الأموال في الحيل والمكائد أولى من إنفاق الأرواح في الحروب والشدائد، مستشهدا في ذلك بالحكمة القائلة : « **رب حيلة أنفع من قبيلة** » [33]. كما يجب

على السلطان اختيار القائد المناسب والأنسب على رأس الجيش، وما يجب أن يتوفر عليه من الشجاعة والقوة وحس الذكاء وخبرة بالحروب ومكائدها، وكذلك اختيار مكان المواجهة في علو الأرض وتجنب الوعر منها. والظاهر أن الكردودي قد استفاد من حادثة إيسلي وما حدث في شخص الأمير سيدي محمد بن عبد الرحمان، وهو يقول: « ويجب على أمير الجيش أن يخفي علامته التي يمتاز بها، وتبديل زيه وتعمة مكانه كي لا يلتمس عدوه غدره، ولا يمشي في النفر اليسير خارج العسكر لأن عيون عدوه قد أذكيت عليه » [34]. كما يجب عليه أن لا يطلب الغنيمة حتى يحرز السلامة وتحط الحرب أوزارها. إنها أفكار الكردودي التي استلهم مادتها من التاريخ الإسلامي، وقد أفاد من وقائع عدة إيمانا منه بفكرة التاريخ العبرة.

ب . العدة

أشار الكردودي إلى أن الله تعالى قد أمر باتخاذ العدة في كتابه العزيز حين قال: ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ [35]، وقال كذلك: ﴿ **وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم**﴾ [36]. فالقوة والحذر في الآيتين بمعنى أخذ السلاح والتأهب للحرب، وسمي السلاح حذرا لأنه يتقى به ويحذر. وكثيرة هي الآيات والأحاديث التي تحث على تقلد السلاح والاستعداد للحرب لما في ذلك من فضل وأجر عظيمين. وقد توخى المؤلف وراء هذا التركيب المكثف للنصوص الدينية، التأكيد على ضرورة الإعداد والتأهب عند كل معركة، يقول بصدد ذلك: « وأما طلب إعداد ما للجهاد والإكثار منها فمتحتم » [37]. وإذا لم يحدد طبيعة هذه القوة ولا كيفية إعدادها، فقد وجد في قوله عز وجل : ﴿**ما استطعتم**﴾، ليبرهن على كل أساليب العدة، وكل ما يمكنه تعزيز قوة الجند فهو واجب، فالرمي بالحجارة، أو بالنبل أو بالمدفعية كلها وسائل للرمي تدخل في باب إعداد العدة للنيل من العدو وسحقه، كما بين المؤلف فضل صناعة هذه الأسلحة وحملها والجهاد بها. ولم تفته الفرصة دون الأخذ بتفصيل في بيان فضل الاهتمام بالخيل وإعدادها، وقد وظف لذلك زخما هاما من الأحاديث النبوية.

ج . مكافأة الجند

عند التأكيد على أهمية تنظيم الجيش وترتيبه، لا ينبغي فصله من وجهة نظر الكردودي، على ما يجب على السلطان وأمير الجيش من مراعاة لأحوالهم والنظر في أمورهم وحاجاتهم، وقد تفصل استنادا إلى ابن خلدون، في شأن استخدام الجند من البدو دون أهل الحضر الذين يدفعون الضرائب. لذلك، فقد أكد على ضرورة أن يمنعهم السلطان من الاشتغال بالتجارة وكل أنواع التكسب، يقول الكردودي: « وليكن اكتسابهم من الجهاد عن المملكة والإغارة على أعدائها، فإنهم كالجوارح التي يضر بها ويفسدها أن تطعم ما لم تصده » [38]. غير أنه لا يمكن الحصول على جيش قوي يطمئن به بال السلطان وتستقيم به أحوال الدولة إلا «بإدرار أرزاقهم وشد حاجاتهم والمكافأة لهم على قدر بلائهم وغنائمهم » [39]. ويجب أن تحجز لهم رواتب في حالة عجز أو موت أحدهم، كما يجب على السلطان تشجيع جنده بالزيادة في المنح المخصصة لهم حسب الظروف الاقتصادية للدولة. إلا أن هذه المكافأة يجب أن تتسرب إليهم بنوع من الاحتراس، حتى لا يفتح للجيش باب الطمع والجشع، فيجر بذلك التهلكة عليه وعلى دولته. ولعل المؤلف يريد بهذا أن يلمح لما صار عليه حال الجيش الانكشاري التركي من طغيان بعد فساد تنظيمه، وكذلك

ما عرفه المغرب من صراع بعيد وفاة السلطان المولى اسماعيل فيما اصطلح عليه بـ «أزمة الثلاثين سنة»، حيث تدخل جيش البخاري في الشؤون السياسية للبلاد، وأخذوا يولون ويعزلون من الأمراء ما طابت إليه أنفسهم.

2. المظاهر المعنوية

اعتنى الكردودي كثيرا بالمظاهر المعنوية للجيش، فشكلت الجانب السائد والمهيمن على جل صفحات المخطوط، وهذا راجع بالأساس إلى مشربه الثقافي الديني، وقد اعتمد في معظم أبواب المخطوط على أسلوب التأثير والاقناع لتجييش المشاعر، وبث روح اليقظة في نفوس الجند رغبة منه في النفخ في معنوياتهم وبعث واجب الجهاد في بواطنهم، كمظهر أساسي من مظاهر الإيمان الحق للفرد المسلم. وعلى العموم يمكن أن نبرز تجليات هذه المظاهر المعنوية من خلال النقط التالية:

أ . الاعتناء بالروح المعنوية للجند

يرى المؤلف أنه لا يجب الإقدام على الجيش إلا لرجل « ثابث الجناب، صارم القلب، رابط الجأش، صادق البأس، قد توسط الحروب ومارسها ومارسته » [40]. وقد عمد الكردودي إلى بعث مجموعة من الوقائع والحكايات من أعماق التاريخ الإسلامي، لإغناء الروح المعنوية لدى الجند، وتجديد روح القوة والإيمان لديهم، مدعما ذلك بآيات قرآنية جمة. ومن تجليات إغناء الروح المعنوية للجيش عند الكردودي، تأكيده على ألا قوة إلا قوة النفس، وأن الشجاعة ما هي إلا اعتقاد القوة على دفع المعترض، إذ لا يجب على الجند الاغترار أو الخوف من كثرة العدة والعدد، موردا في ذلك جملة من الوقائع الإسلامية ومستشهدا بزخم من الآيات والأحاديث النبوية، التي تؤكد على وجوب اعتقاد المسلم أنه الأقوى، وأن عدوه أضعف منه، إذ ان اعتقاد الغلبة يساعد على النصر. كما ذكر المؤلف بقدرة الأصوات المائلة في التأثير على النفوس ساعة الحرب، نظرا لما يصيب الروح من مزاج النشوة، يستخف بها الصعب وتستميت بها النفوس على الصبر على المواجهة.

ب . التوجيه الروحي

إذا كان الكردودي قد اعتمد من خلال مؤلفه مخاطبة نفوس الجند، والعمل على استنهاض هممهم وبعث روح اليقظة والحماس فيهم، فإنه قد أراد من وراء ذلك تحقيق نصر المسلمين، ودفع الهزيمة التي لحقت بهم، فجعل مقابل ذلك ضرورة تحقيق العدل والتقوى بينهم [41].

لقد بنى المؤلف مفاهيمه وهو يتوجه بخطابه إلى القواد والجند، على أسس إسلامية حرة، إذ لا غرو أن يربط كل حركة أو كل فعل من أفعالهم بالجانب العقدي، وقد جعل من الإيمان وصفاء العقيدة دليل الجندي المسلم، فلا يمكن للنصر أن يتحقق، ولا للغلبة أن تكون إلا بالقيام بالعمل الصادق وتقوى الله، مستشهدا بقول عمر بن الخطاب : «**إنما تقاتلون بأعمالكم**». لذلك فقد أكد الكردودي على ضرورة أن يلزم الجند شيئا من التدبر في أمور دينهم، وأن تروى لهم الأحاديث والآيات القرآنية ليتعظوا، ويتخذوا من سيرته وغزواته ﷺ دروسا للعبرة والصبر على مجاهدة الكفار. كما أكد على لزوم الطاعة لله سبحانه وتعالى، وعدم مخالفته في كل كبيرة وصغيرة، وهو ما نلمسه في قوله : « **واحترز أيها المجاهد من تأثير المخالفة في قلبك، وتضييعها لهمتك وغلبتها على عزمك ونيتك، وطهر باطنك من لوث المخالفات** ..» [42].

ج . الدعوة إلى الجهاد

سيطرت الدعوة إلى الجهاد على معظم الكتابات الأدبية والعسكرية والنتاجات الفكرية للمغاربة، ابتداء من انزال الجيوش الفرنسية بالجزائر، إلى هزيمة إيسلي وما بعدها. ولم يدخر الكردودي هو الآخر، وسعا من خلال مؤلفه «كشف الغمة» في التحريض على الجهاد وبيان فضله وعلو درجة أهله، وقد سخر لذلك خاتمة مستفيضة، وجعل هذه الدعوة مشروطة بضرورة « استكمال آلات الجهاد وإعداد عدته، ومعرفة ما يحتاج إليه من صفة اللقاء وهيئته والإسراع إليه » [43]. وقد وظف في هذا الباب مجموعة من الآيات والأحاديث وأخبار السلف الصالح في تفضيل التسابق إلى الجهاد للدفاع عن بيضة الإسلام، وإعلاء كلمة الله تعالى، وكذلك ببيان قدرة أهله وما أعد لهم من جنان واسعة وخيرات فاضلة ومن أجر وتواب عظيمين. وفي كل ذلك دعوة صريحة إلى مناهضة الغزو الفرنسي والتصدي له ببوابة الجزائر، إذ كان كغيره من فقهاء وعلماء المغرب يرى ضرورة هذا التدخل والمواجهة، انطلاقا من فكرة التضامن الديني، والدفاع عن دار الإسلام، وقد عزز هذه الدعوة بمجموعة من الأشعار، من ذلك قصيدة الوزير محمد غريط التي أنشدها بعد استيلاء الفرنسيين على تلمسان، والتي جاء في مطلعها:

مالي أرى أهل الغرب وسنانا

من بعدما أخذ الرومي تلمسان[44].

وقصيدة أخرى للوزير محمد بن ادريس العمراوي، جاء في افتتاحيتها:

ياساكني الغرب الجهاد الجهاد

فالكفر قد شارككم في البلاد [45].

رابعا. ملاحظات حول مخطوط «كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة»

بالرغم من القيمة التاريخية الكبيرة لمخطوط «كشف الغمة» نظرا للمرحلة التي عاصرها مؤلفه محمد بن عبد القادر الكردودي، إلا أن المخطوط لا يعدو أن يكون مجرد كتاب جامع لجملة من الأحاديث والآيات القرآنية [46]، والتي عمل الكردودي على توظيفها بغزارة مكثفة، دون توفر أدنى قنوات الربط والتحليل العميق في علاقتها بالأسباب الدفينة لأزمة و«**تخلف**» الجيش المغربي آنئذ، والذي كان يفتقر إلى أبسط الوسائل والإمكانيات القتالية، ومرد ذلك هو طبيعة الثقافة الفقهية للكردودي ومشربه الفكري. هذه الثقافة التي تستلهم مادتها من محاور الحلقات الدينية لجامع القرويين، لم تكن لتهتم بشكل مباشر وملموس بمسألة الحرب كمفهوم وكتقنية متطورة، وبقضية الموارد العسكرية والبشرية والتسليحية، وما تقتضيه من حلول إجرائية جادة. إنما حاولت بالاعتماد المكثف على جملة من المصادر لكل من ابن خلدون وابن الأزرق والطرطوشيوأكنسوس وغيرهم.. محاولة صياغة «**نظرية جديدة**» عبارة عن «**مشروع اصلاحي**» يستلهم مادته بالدرجة الأولى من الأصول والنصوص القديمة، الأمر الذي يعبر عن أزمة من داخل الأزمة، إذ كيف يمكن العثور في تجربة الماضي على حلول لأزمة الحاضر ؟[47].

_ المشروع الأساسي الذي جاء به الكردودي كبديل لوضع حد لمأساة الجيش التي أثبتتها هزيمة إيسلي، يظهر من خلال العنوان الذي اختاره للمخطوط : « كشف الغمة »، وهي عبارة تفيد مدى الهم والنكد الذي سيطر على السلطان

المولى عبد الرحمان بن هشام 1859.1822 آنئذ وعلى كل المغاربة بعد نكسة إيسلي 1844. والمؤلف كما ذكر العروي جاء كأداة للضغط على الأمير سيدي محمد بن عبد الرحمان ليقنع أباه باتخاذ المبادرة وإصلاح شأن الجيش والتصدي لكل المعارضين لذلك[48]، مؤكدا على وجوبية هذا الإجراء بعبارة « أن حرب النظام **حق** على هذه الأمة »، فخصص لذلك الباب الأول بكامله، حيث دافع فيه على تنظيم الجيش، وعرف بخصائص كل من القتال بالصف، والقتال بالكر والفر الذي هو أسلوب المغاربة في القتال. وأشاد بأسلوب «النظام» أو «الزحف» بدليل أن القرآن والسنة دلا عليهما.

إن الموضوع رغم أهميته، فإن الكردودي لم يكن صاحب نظرية خاصة ولا مبدع فكر جديد، وقد أفرد لذلك بابا مفصلا يبقى تقريبا مجرد تلخيص للفصل الذي ضمنه ابن خلدون في مقدمته، في شأن «الحروب وبيان مذاهب الأمم في ترتيبها» [49]. كذلك فإن اعتماد الكردودي مجموعة من النصوص القرآنية والنبوية بشكل مكثف، يعطي دليلا على أن مسألة «النظام» في تصور الكردودي تتعلق بواجب أخلاقي أو ديني أكثر مما تتعلق بضرورة حيوية، وهذا يفسر مدى الصعوبة التي لقيها المؤلف كمجموعة من علماء الفترة، الذين عجزوا عن لمس أبعاد الحرب الاستعمارية، واستعصى عليهم فهم أسسها وعواقبها [50].

_ في حديث الكردودي عن العدة، بالرغم من الوعي السائد لدى المؤلف بأهمية الوسائل اللازم توفرها عند القتال، هذه الوسائل التي يمكن حصرها في مختلف الأدوات المتعلقة بالحرب والتي تتصل أساسا بأصناف وأنواع الأسلحة، فإننا نلمس سيادة نظرة ضيقة عند الكردودي في ما يتعلق بهذا الجانب، حيث أن ما ورد في هذا الباب العدة، يظل تعبيرا وشاهدا على تخلف آلات جند المغرب خلال منتصف القرن التاسع عشر: السيف _ النبال _ الرماح ... فيما أطنب حديثا حول الخيل والجياد ... إنها أدوات تعبر من نفسها عن سيطرة أجهزة تذكرنا بانطلاق عهد الفتوحات الإسلامية .

أكثر من ذلك، فإن تخلف الأدوات العسكرية المغربية، لا يظهر فقط فيما أشار إليه الكردودي من أساليب قتال تدل على تقاليد عسكرية عتيقة، بل في قيمة ونوعية هذه الأسلحة التي لم يكن لها كبير حظوظ لمواجهة الجيوش الأوربية المزودة من طرف الثورة الصناعية بأسلحة تتطور يوما بعد يوم [51]. ومما أثبت عتاقة هذه الأدوات، حينما عفا قادة الجيوش الأوربية، الفرنسية في إيسلي، والاسبانية في فيما بعد خلال حرب تطوان 1860، على حمل تلك «الغنائم» حتى أن هناك منها ما أحيل على الأضرحة والمتاحف يقول الناصري [52].

إن الدعوة إلى نهج نظام الغرب في القتال، واتباع أسلوبهم في الحرب دون إشارة إلى ضرورة الأخذ بأدواتهم في ذلك، هو إغفال لعلاقة التأثير والتأثر المتبادلة بين نمط القتال الواجب تبنيه والأدوات القتالية التي من اللازم توفيرها وتوفرها، وذلك من الأمور التي أغفلها المشروع الإصلاحي للكردودي، والتي سيتم تداركها من خلال السياسة الإصلاحية التي نهجها المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، خاصة في عهد السلطانين سيدي محمد بن عبد الرحمان 1859 . 1873 والمولى الحسن 1873. 1894.

_ لقد ركز الكردودي على أهمية مكافأة

الجيش، وأوصى أن تكون وسطا حتى لا ينقلب هذا الجند على السلطان أو ولي الأمر، ويصبح صنيعة بين أيديهم، إلا أنه لم يبين مع ذلك طبيعة هاته المكافأة، ولا كيف تكون، ولا مما تؤدى أو من يجب عليهم تأديتها، علما أن مثل هاته الاستفسارات قد تم طرحها من قبل، من طرف الأمير عبد القادر الجزائري على علماء فاس، وقد تفضل فقيه فاس علي التسولي توفي سنة 1258هـ الموافق لسنة 1842م بأمر من السلطان بالرد عليها [53]. فالاعتراف الضمني بالمكافأة للجند أمر مسلم به، ومفروض لأجل ضمان وفاء هؤلاء الجند وخضوعهم للسلطان، إلا أن الواقع الراهن آنئذ كان يقتضي طرح الحلول الموضوعية للبحث عن جواب حول ماهية المصادر الأساسية لسد نفقات الجند ؟ فالدفاع عن فكرة «جيش النظام» كان لابد وأن تحاط من جميع جوانبها بما فيها المادية. إذ كيف ننفق على جند نظامي يتم احداثه من طرف الدولة في الوقت الذي كانت فيه خزينة هذه الأخيرة تعرف استنزافا غير مسبوق نتيجة تداخل مجموعة عوامل داخلية وخارجية، طبيعية وبشرية ؟

خاتمة

يعد مخطوط «كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة» بمثابة مشروع إصلاحي تقدم به العلامة محمد بن عبد القادر الكردودي لحل معضلة الجيش المغربي، بعدما لحق هذا الأخير من المهانة والضعف أكدتهما حرب إيسلي، والتي سجلت ضربة عسكرية وحضارية قوية في حق المغرب. وقد سعى من خلال ذلك إلى طرح الإجراءات الضرورية لمواجهة القوات الجديدة ودفع نار الخطر المحذق بالبلاد، بالتأكيد على وجوب إحداث عسكر النظام، فيما توخى من وراء ذلك إثبات محدودية الأشكال القتالية للمغاربة وإعطاء البرهنة على وجوب مقاتلة العدو بنفس طريقته القتالية. إلا أنه مع ذلك لم يستطع صياغة عناصر جديدة حول معالجة أزمة الجيش، فكانت مقولاته مجرد تلخيص لأعمال سابقيه، مما يفسر أن الإيديولوجية المخزنية خلال هذه الفترة لم تستطع تجاوز المستوى التقليدي لدى العلماء، حتى بالنسبة لأولئك الذين كانوا من المقربين للسلطان ووزرائه [54]. ومن ثمة استمرارية المقولة التقليدية حينئذ البعيدة عن مستوى لمس عمق الظاهرة بأبعادها المتعددة، وفهم جوهر الصراع الذي ظل في منأى عما تصورته الذاكرة المغربية، دون استبطانها لعمق الأزمة في القرن التاسع عشر، وكذا ملامسة أبعاد الحرب الاستعمارية وفهم أسسها وعواقبها.

إن المخطوط بالرغم من أهميته التاريخية، وبالرغم من الصدى الذي لقيه في مرحلة الأزمة، فهو يبدو من الناحية المعرفية أقل قيمة من الكتابات المغربية الأخرى، التي كانت تدعو إلى إعادة تنظيم وتحديث الجيش المغربي، وتحاول وضع حلول مناسبة لمعالجة الموقف والتخلص من ذيول الهزيمة. ولكي نلمس عن كثب ضعف القيمة المعرفية لهذا المخطوط، ندرج ملخصا لأفكار صاحبه كما أوردها الأستاذ العروي:

. سؤال . ما هي الشروط الكفيلة بتحقيق الانتصار ؟

+ جواب . العدل والتقوى.

. سؤال . لماذا يلجأ الجنود المغاربة إلى الفرار من المعركة بسرعة ؟

+ جواب . لضعف إيمانهم بقضاء الله وقدره.

. سؤال . مما ينبغي استجماع عناصر الجيش ؟

+ جواب . من البدو، بعيدا تماما عن أهل

الحضر الذين يدفعون الضرائب [55].

إن مخطوط كشف الغمة عموما، يظل معبرا وشاهدا على عمق الصدمة التي تلقتها المخيلة المغربية على إثر الحرب الاستعمارية الجديدة، وشاهدا على أزمة الجيش المغربي خلال القرن التاسع عشر، أكثر مما يقدم حلولا واقعية لها.

الهوامش

- Jean-Louis MIEGE – Le Maroc et l'Europe 18301894- ; Tome II, Presses Universitaires de France, p. 386.

2 . ابراهيم بوطالب . البحث الكولونيالي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعمارية، حصيلة وتقويم ؛ ضمن ندوة : **البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم**، منشورات كلية الآداب، والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، الندوة رقم: 14، 1989، ص. 112.

3 . محمد المنوني . مظاهر يقظة المغرب الحديث ؛ الجزء الأول، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدارالبيضاء، الطبعة الثانية، 1985، ص. 2322.

4 . علي أومليل . "ما هو الإصلاح بمفهوم إسلامي " ؛ ضمن أعمال ندوة : "الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: 07، السنة 1983، ص. 25.

5 . محمد المنوني . م . س.، ص. 23.

6 . محمد بن ادريس الكتاني . سلوة الأنفاس ؛ طبعة حجرية، الجزء الثاني، ص. 333.

7 . ابن زيدان . اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء الخامس، الطبعة الثانية، مطبعة إديال، الدارالبيضاء، 1990، ص. 226 . 227.

8 . محمد الكتاني . م. س.، ص. 333.

9 . محمد المنوني . م. س.، ص. 38 . 39.

10 . محمد بن عبد القادر الكردودي . كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة ؛ طبعة حجرية، ص. 3.

11 . ابن زيدان . م.س.، ص. 237.

12 . المخطوط ؛ ص. 99.

13 . نفسه . ص. 103 . 104.

14 . محمد الكتاني . م. س. ص. 333.

15 . المخطوط ، ص. 111.

16 . نفسه ؛ ص. 3 وما بعدها.

17 . نفسه ؛ ص.2.

18 . نفسه ؛ ن. ص.

19 . نفسه ؛ ص. 23.

20 . نفسه ؛ ص. 4.

21 . نفسه ؛ ص. 2.

22 . نفسه ؛ ن. ص.

23 . نفسه ؛ ص. 5.

24 . نذكر في هذا الصدد :. "رسالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف" لابن عزوز .. جواب البسيط لأبي الحسن علي التسولي مجموعة قصائد للوزير محمد بن ادريس العمراوي.

25 . علي أومليل . م. س.، ص. 21 . 33.

26 . المخطوط ، ص. 5.

27 . نفسه ؛ ص. 9.

28 . نفسه ؛ ص. 6.

29 . سورة الصف، الآية : 4 . المخطوط ؛ ص. 6.

30 . المخطوط ، ص. 1.

31 . نفسه ؛ ص. 14.

32 . نفسه ؛ ص. 24.

33 . نفسه ؛ ص. 17

34 . نفسه ؛ ص. 18. 19.

35 . سورة الأنفال، الآية : 61 . المخطوط، ص. 50.

36 . سورة النساء، الآية : 101 . المخطوط، ص. 59.

37 . المخطوط ، ص. 23.

38 . نفسه ؛ ن. ص.

39 - Abdellah LAROUI – Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain 1830-1912 ; Edition Maspero, Paris, 1977, p. 277.

40 . المخطوط ، ص. 37.

41 . نفسه ؛ ص. 90.

42 . نفسه ؛ ص. 104.

43 . نفسه ؛ ص. 99.

44 . نفسه ؛ ص. 99.

45 . نفسه ؛ ص. 104.

46 - Abdellah LAROUI – op. cit., p. 277.

47 - Ibid., p. 276.

48 - Ibid., p. 278.

49 . عبد الرحمان بن خلدون . المقدمة ؛ دار الرشاد الحديثة، دار الفكر، د.ت.، ص. 270. 279

50 . عبد الله ساعف . السياسي والعسكري من خلال كتابات مغربية في القرن 19 ؛ ضمن مجلة أبحاث، العدد 19. 20، شتاء 1989، ص. 45.

51 . نفسه ؛ ص. 45. 46.

52 . أحمد بن خالد الناصري . الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ؛ الجزء التاسع، دار الكتاب، الدارالبيضاء، 1964، ص. 94.

53 . أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد ؛ دراسة وتحقيق عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1996.

54 - Abdellah LAROUI – op. cit., p. 278.

55 - Ibid., p. 277.